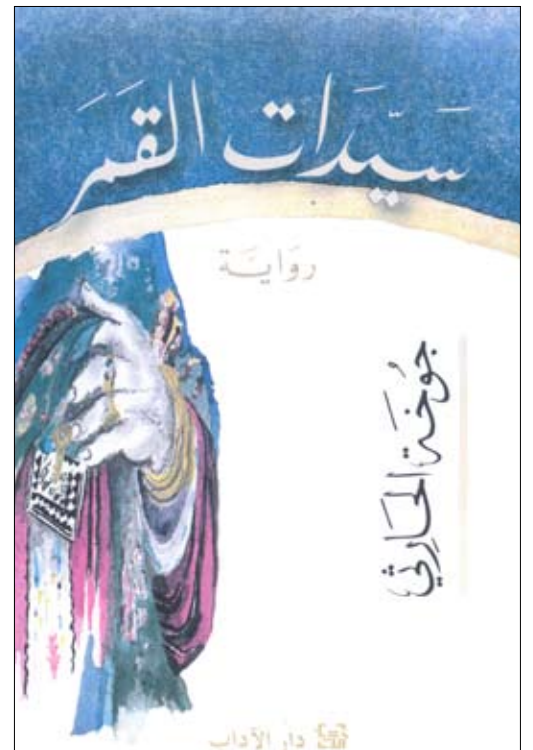


## كتب

## رواية

## جوخة الحارثي.. امرأة تلقب بالقمر



بعد روايتها الأولى «منامات»، تعود القاصة والروائية العمانية الشابة لتعرف من تقاليد البدو في «سيدات القمر» (الأداب)، وتحكي عن حب تتنازعه غواية الأساطير الشعبية، وصراع الامتلاك والحرية. قصة عزان ونجية، امرأة القمر التي تقدم له نفسها في إحدى الليالي، قرأها لنا الأديب السوري المعروف

ياسين زفاعية \*

«سيدات القمر» (دار الآداب)، رواية جاءتنا هذه المرة من سلطنة عمان، لنكتشف فيها كاتبة عنيدة، إن صح التعبير. تقدم لنا جوخة الحارثي حياة جوانية لنساء مضطهدات، غاويات، ساحرات. تحمل في

سردتها ماسي وقصص حب وحكايات، وتقاليد أقي ما فيها أن تلد المرأة جنينها وهي واقفة شادة يديها إلى أعلى، ممنوعة من الصراخ.

الولادة عار إلى أن يتبين الخيط الأسود من الخيط الأبيض. في رواية الحارثي الثانية بعد «منامات» (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) - 2004، يتداخل السرد بين الماضي - أوائل القرن العشرين - والحاضر. بين السفر على البغال، والسفر بأحدث أنواع السيارات، يبقى حلم المرأة الأكبر الزواج. منذ الـ 16 يحبلن، وينجبن، ويصبحن في الثلاثين، جذات. حياة قاسية في البدايات: الثورة ضد الإنكليز، وتهريب السلاح، والتجارات المحرمة. ومن خلال كل هذا، تمرر الكاتبة قصة حب فيها كل التحدي، تروني من الأمثال الشعبية بكثرة: «المحبوب محبوب، جاء ضحي، وجاء غروب، والرامد رامد، جاء حاش وسامد». أي المحبوب محبوب، مهما كان الوقت الذي يجيء فيه.

خلفية الرواية هي عادات وتقاليد البدو في عمان، التي تشبه عادات البدو في الصحارى العربية كلها. «ظل البدو، على الرغم من استقرارهم الظاهري (...)، محتفظين بزيمهم التقليدي، وطباعهم الحرة، وبالحدود العارمة التي تفصلهم عن الحضرة». أما قصتها فمأساة عزان الذي فقد ولديه، لتتخذ مفاجأة غير متوقعة، لم تكن لتخطر على بال. وهو داخل إلى بيته، بعد حضور رقصة الزار الطقوسية، لمح ظلاماً، ومنه خرج عليه صوت أنثوي. كانت امرأة فارعة الطول، وقفت قبالتها، ونزعت برقعها عن وجهها. حين هدأ روعه، سألتها: «من أنت وماذا تريدين؟» نظرت المرأة مباشرة في عينيه. أربكه جمالها المصمّم، وبريق عينيهي الواسعتين. أربكته رائحتها، وقربها المبرج منه. لكن كلامها أفقده السيطرة:

«أنا نجية، وألقب بالقمر، وأريدك أنت...».

سنتظل عبارتها تطنّ في رأسه أعواماً كثيرة: «أنا نجية، وألقب بالقمر، وأريدك أنت...». لم يعرف عزان نساءً كثيرات في حياته، ولم يعرف بكل تأكيد امرأة، على هذا القدر من الجراءة، تكن مألوفة في العوافي (بلدة في سلطنة عمان). كأنها في مدينة أوروبية، تقول له: «أريدك أنت» من دون التفكير في الارتباط أو الزواج. تريدها علاقة حرة تماماً. يلتقيان في السر، ويمارسان كل أنواع الحب من دون مساءلة. هذا ما أراده كلاهما: الحرية في العلاقة. ولوهلة، ظناً أنهما بلغا الكمال في حرية الشغف الخاصة. لا تصنع، ولا مداراة، ولا كذب. لا وعود، ولا أمال. اشتعال اللحظة وحسب، لا قيود من المستقبل. هذا ما أراده كلاهما وسعى إليه: رجل حر، وامرأة حرة، وعلاقة حرة. لكن بعد أسابيع، يكتشف عزان أن هذا الحب الحر سقط في أعنف أشكال العبودية، وأن هذه الحاجة الملحة إلى الآخر باتت تقيد كلا منهما بأغنى القيود، وتشغله عن كل شيء عداها.

عرف أن الدورة اللانهائية من الاتصال والانفصال بينهما حلقة محكمة يدوران فيها عبيد مقيدين. كانت حاجته إليها عميقة وعنيفة ومبهما. وكان لقاؤهما يزيداها عنفاً وعموضاً، وينادي أفاصي ما فيه من رغبات. فإذا بعزان يصرخ: «لا حرية في الحب».

لكن من هن سيدات القمر؟ تقول الأسطورة إن الله خلق الناس يمشون على أربع، ثم شطرهما نصفين، فأصبح كل نصف يبحث عن نصفه الآخر.

في الرواية، نقرأ المناجاة الآتية: «الم تعرفي الحب يا ميا؟ ألم تشعر بي بي وأنا أطوف حول بيتكم كما يطوف

الحاج حول كعبته؟ كيف يتسع البيت لكل ذلك العشق؟ كيف تتحمل الشرفة الوحيدة وقوفي الوحيد، بأكداس العشق الثقيلة عليها، من دون أن تنهد، وتتساقط على تراب الشارع، أو تطير في سماء الله؟ (... كل شيء ظل في مكانه، رغم أنني لست في أي مكان. لم تتكسر النوافذ، رغم أجنحتي الذي انفردت على زجاجها من أول نافذة البيت، حتى آخر نقطة في الأفق. البيت اتسع لي، اتسع لصرخة العشق الناهضة تجول أصدائها في. فكيف يا ميا لم تر عينك المطبقتان على ماكينة الخياطة، براحي، وسجني لأمس أعماقها؟» يقول النص شيئاً ما عن الأرواح الكروية المنتشرة

الصحراء العمانية هن صيد اللؤلؤ إلى ظهور النفط إلى التجارة بالرق

المنفصلة التي تعود لتلتقي من جديد.

من هنا نعود إلى المحرم عزان ونجية امرأة القمر. قال عزان لها إن «الشعراء الذين تغنوا بلذة الامتلاك لم يكونوا عشاقاً بل قناصين. ابتسمت نجية بسخرية خفيفة، قناصون؟ قال عزان بثقة: نعم قناصون، العاشق يا نجية لا يمتلك المعشوق، مهما اتحد معه وتلدّ به. المعشوق يا نجية كائن مثلك، كائن لا يُمتلك.

لكن الضجر بدا على وجه نجية التي لم تعرف في حياتها كيف تخفي مشاعرها. تضايقت خاصة لأن عزان يفسد لقاءاتهما الحميمة بمثل هذا الكلام. لماذا يتحدث عن

الامتلاك؟ هو الذي عنده أسرة وأولاد، وهي لم تطالبه بشيء. هي سعيدة هكذا، ولا تفكر في الامتلاك والقنص. هي رغبت في أن تكون حبيبته، فكانت، ولا تريد شيئاً آخر. فلماذا يبدو معذباً بأشياء غامضة لا تفهمها؟».

تستعيد الرواية أيضاً الماضي البعيد، وكيف تطوّرت الحياة في الصحراء العمانية، من صيد اللؤلؤ إلى ظهور النفط، إلى التجارة بالرق. وكيف كان التجار يخطفون الشبان من بيوتهم، ويبيعونهم أرقاءً للأسر الغنية والأجانب. وتدخل الرواية في التقاليد القديمة، وخصوصاً رقصة الزار، وهذا تقليد منتشر في أكثر البلدان العربية، وخاصة مصر وسوريا.

وترتكز الرواية مجدداً على الأسطورة التي يؤمن بها ناس عمان: «كان الناس جنساً واحداً: ذكراً وأنثى في الوقت نفسه وهم أبناء القمر. لكل إنسان أربع أيد، وأربع أرجل، ورأسان... لكن الآلهة خافت من نفوذ هؤلاء الناس، فشطرتهم شطرين، وبقي مكان السرة في البطن تذكيراً لهم بهذا الانفصال. وهكذا أصبح الناس جنسين، وبحث كل شطر عن شطره الضائع ليتحدّ به من جديد. وهذا يفسر المقولة الشهيرة: المرأة مخلوقة من ضلع الرجل.»

في روايتها «سيدات القمر»، تتناول جوخة الحارثي الحياة الجوانية المجهولة لهذا الجزء من العالم العربي. لكن الأحداث تفلت أحياناً من يد الكاتبة، فيشعر القارئ بعدم الراحة، ويضطر إلى إعادة القراءة من جديد.

وهذا الضعف يظهر في الكثير من الروايات العربية، ما يجعلها في بعض الأحيان مفككة. هذه الرواية التي تأتينا من عمان مفاجأة جديدة تعزز حضور المرأة العربية التي تهيمن على الساحة الروائية، وهذا ما يبشر بالخير.

(\* أديب وناقد سوري

## مسرحية

## ناتاشا أشقر: «هو» الرجل - الحرب!

صباح زويت

ناتاشا أنطونيللو أشقر، كاتبة باللغة الفرنسية، ذات علاقة صعبة مع مدينتها، مع حربها وسلمها، مع المحيط الاجتماعي عامة، والذكوري خاصة... هذا الأخير، بما يمثل في ذاكرتها من رمز للعنف والحرب، سيحتل واجهة 80 cellules مسرحيتها المؤلفة من فصل واحد التي صدرت أخيراً عن «مكتبة أنطوان» بالفرنسية. تلجا «هي» البطلة، إلى لغة عنيفة، تخاطب بها «هو». هذا كل ما نعرفه عن الشخصيتين في العمل. حديث «أثري» بين الـ«هي» والـ«هو»، يطول ساعات، عبر الهاتف العادي أحياناً، أو الخلوي مراراً وتكراراً. كل الكلام يدور عبر الهاتف. تارة ينقطع خط أحدهما لضعف الإرسال، وطوراً الكهراء هي التي تنقطع، لتتوقف معها المكالمة.

وأحياناً كثيرة، تطلب المرأة من «هو» أن يقطع خطه لغلاء سعر المخابرة، وهكذا دواليك على طول 220 صفحة من «الوقعة» الكلامية، هاز. شلال من المفردات، بعضها من ابتكار أنطونيللو، وبعضها الآخر ينتمي إلى قاموس البذاءة، لغة العالم الذكوري. كأن الكاتبة تردّ الصاع صاعين، لكل أشكال العنف والحرب التي أججها الذكور.

في «زنزانة 80» لا تتمرد أنطونيللو على الحرب الأهلية فحسب، بل على واقع النبذ، وما نتج منه من شعور بعدم الانتماء الاجتماعي في محيطها من «اللبنانيين الأصليين»، الذين عدوها مجرد دخيلة غريبة، لكونها لا تنتمي إلى عائلة لبنانية «صافية» أباً عن جد. تنتقد أنطونيللو «التصفيات العرقية» (كما جاء في المسرحية) التي كانت تقوم بها الميليشيات في

حي التباريس حيث كانت تسكن، وشهدت على عملية قتل متعمد لعامل سوداني في أحد الأزقة. نجد على صفحات العمل كلمات لبنانية عديدة، وعبارات عامية فرنسية. كان لا بد من ذلك، كي يتلاءم الكلام مع موضوع المسرحية، ألا وهو تصفية الحسابات مع عنف الحرب وقبحها، من خلال عنف كلامي ضروري، في عملية المساءلة. جاء الحوار المسرحي تحقيقاً شرساً، مع ذلك الـ«هو»، الرجل الذي تقصفه عبر الهاتف بوابل متواصل من الكلام المدمر، والمهين، والعنيف.

تمتلك أنطونيللو الجراءة على قول ما لا يقال عادة عن جرائم الحرب، وعيشة الحياة الجنسية التي عاشتها بكل حريتها وجنونها. جاءت عباراتها دقيقة في وصف مشاهد من تلك الأيام، ليس فقط تلك المتعلقة بالأجسام المبعوجة والرؤوس الممعوسة، بل أيضاً في



80 cellules... عبث وعنف ودمار ذاتي وقسوة

وصفها لأبسط تفاصيل الحياة اليومية. تكتب: «أمرت يدي على فخذي لأنخلص من بقع المني، لأنني كنت أعلم أنه ليس من نقطة ماء في الحنفيات. قلة المياه، ألواح الصابون المشققة، المنزحة والمخبرة على المغاسل، هل تذكر؟ المغاسل خارج الخدمة، المغاسل التي تحولت إلى خزانات للمياه، وألواح الصابون الجافة واليابسة إلى الأبد. الحرب هي كل هذا أيضاً.»

تنتهي المسرحية بموت «هو». نكتشف أنه كان ميليشيوياً يمينياً أيام الحرب، وأصبح بعدها صحافياً يسارياً. يموت بطريقة عنيفة كان الكاتبة عاقبتة. يموت لأنها تنحصر عليه منطقياً، أم لأنه رأى نفسه أمام حائط وجودي مسدود؟ عبث وعنف ودمار ذاتي، ضمن كتابة لا تتوانى عن الصريح والمباشر والقسوة، لتشدنا إليها بقوة.